

وينبني عليها سلوكه الذي يعكس، عموماً، صورة هذا الشعب عن نفسه، والتي يحاول، من خلالها، إقامة علاقاته مع شعوب أخرى، لها شخصيتها أيضاً. ومن خلال علاقات الشعوب بعضها ببعض تكوّن عن بعضها صوراً مختلفة نسبياً عما يتصوره كل شعب لصورته. وعلى ذلك، يتصرف كل شعب تجاه الشعوب الأخرى ويقيم علاقاته معه على أساس صورته عن ذلك الشعب، وليس على أساس ما يريده ذلك الشعب. وبهذا المعنى، يصبح مفهوم الصورة القومية لشعب من الشعوب، هو كيفية تصور شعب لسماة شعب آخر^(١).

والصورة، بهذا المعنى، ليست كياناً ثابتاً محدداً لا يتبدل؛ بل هي وجه من أوجه فعل هو، في الحقيقة، «رد فعل الآخر». أو هو عمل يتم به ادراك الآخر وتجسيده في سياق مواجهته، أو التفاعل معه. وفي الصورة، تبرز لدى الافراد، والجماعات، مواطن الضعف والقوة لدى المقصود بالصورة، أو بالأحرى يبرز ما يتم الاعتقاد بوجوده لدى الآخر.

من هذا المنطلق نستطيع، أيضاً، أن نُعرّف الصورة القومية بأنها «نوع من رؤية الآخر» وتتمثل في رد فعل جماعي، وعفوي، يتألف من مجموع الافكار والاحكام والمعتقدات والاعراف والعواطف والانفعالات والاساطير والحكايات التي ترتسم عن شعب ما لدى شعب آخر، وغالباً ما تكون هذه الصورة ذات طابع جماعي، أي تنسحب على المجموع، حتى ولو قام بها فرد واحد.

وفي معرض تحليل هذا المفهوم، يمكن التمييز بين مستويات الصورة القومية وانواعها، ومراحل تكوينها، ومعرفة أكثر المفاهيم ارتباطاً بها.

فمن حيث المستويات، يلاحظ ان الصورة القومية تتكون من درجات متعددة ترتبط بحجم الادراك والشعور تجاه الشعب الآخر، ثم تتوارى في شكل ترسبات وانفعالات تتراكم في اللاشعور لدى الافراد والجماعات، ويتم التعبير عنها بصورة عفوية وخارج اطار أي تفسير محدد في لحظة من اللحظات.

وتتلون الصورة القومية بوضع كلا الطرفين؛ فتصور القوي للضعيف يصاحبه، دوماً، كثير من مشاعر التعالي والشفقة، في حين أن الضعيف الذي يحقد على القوي يرى فيه أيضاً نموذجاً عليه ان يحتذي به، على الاقل في بعض جوانبه كي يلحق به. كما تختلف الصورة من شخص الى آخر، تبعاً لاهتماماته: السائح يكوّن لذاته صورة عن البلد الذي يزوره، وقد تختلف جذرياً عن صورة البلد ذاته في ذهن الصحفي او السياسي أو رجل الشارع؛ والسياسي، مثلاً، يلوّن الآخرين بألوان سياسية وحزبية ومصالحية، في حين يبحث الصحفي عن الصورة الطريفة، المثيرة، أو الغريبة، القوية وهكذا.

اذا انتقلنا الى مراحل تكوّن الصورة القومية لوجدنا انها تمر في أطوار ثلاثة: في المرحلة الاولى تحدث الصورة نتيجة الاتصال الاول بين شعب وشعب (او بين ابناء من شعب مع ابناء من شعب آخر)، وتعتبر الجماعة عن هذه الصورة الاولى الجماعية بالاجناس الأدبية الخاصة بها، ومن ذلك الحكم الشعبية والمأثورات والنكات والاساطير والحكايات؛ وفي المرحلة الثانية تتبلور الصورة حول محور فردي وتتألف مما يكتبه كتّاب الشعب عن الشعب الآخر، وهم بذلك يؤثرون في الصورة التي يكونها الآخرون في محيطهم، بل قد يشكلونها من جديد أيضاً، وهذا هو الغالب على الصورة الفلسطينية عند الغرب، حيث حددتها، في الغالب، اقلام الكتّاب والوانهم، وخصوصاً في المرحلة الاولى من الصراع العربي - الاسرائيلي؛ اما في المرحلة الثالثة، فان الصورة تمر بعملية النقد والمراجعة. وهذه المرحلة تأتي متأخرة في العادة، حيث يتم افراغ الصورة من الهالة السحرية والانفعالات ويشعر في البحث عن مُسوِّغات لها.